

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

ما علق في ذهني، وتردد في حنایا صدري، سؤال عائشة الصديقة لحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - : يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَبْنُ جُدُّعَانَ، كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَصِلُ الرَّحْمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهُلْ ذَاكَ تَافِعٌ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا، رَبِّ اغْفِرْ لِي حَطِيَّتِي يَوْمَ الدِّينِ" رواه مسلم في صحيحه.

فلو أن ابن جدعان قال يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطئتي يوم الدين، لكان خليقاً أن ينفعه عمله الإنساني الضخم. وعزّز ذلك قصة الأعرابي، الذي جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين - فقال يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله علي.. فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشرائع الإسلام فقال الأعرابي: والذي أكرمك! لا أتطوع شيئاً، ولا أنقص مما فرض الله علي شيئاً، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ". وكان - صلى الله عليه وسلم - يحمي أغراض بعض المسلمين بقوله: أليس يشهد ألا إله إلا الله؟ كما في قصة عتبان بن مالك في الصحيحين، عندما اتهموا رجلا بالتفاق، وودوا أنه - صلى الله عليه وسلم - دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَلَيْسَ يَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟" ، قَالُوا: إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قُلُوبِهِ. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لَا يَشْهُدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ أَوْ تَطْعَمُهُ".

فما بالنا نبالغ في إحكام الأسوار، وغلق الأبواب، وجعل تحصيل النجاة يوم الدين شيئاً أبعد من العيوق، ونحن نرى شرود الناس، وتسلط الشهوات عليهم.

أَفَهُمْ جيداً أن العصور الفاضلة - وما شهدت من النضج والطهر والرقى في بعض مجتمعاتها ومدارسها السلوكية وحلقاتها المتراثة مع حداثة عهدها بالنبوة وصفاء باطنها - يكون لدى بعض خريجيها إحكام لأنفسهم، وضبط لمتبعوهم، ولكن الدعوة شأن بشري إنساني، يأخذ المكلف من حيث هو، ليترقي به في مدارج الكمال ومعارجه شيئاً فشيئاً. ويستحضر البيئة والمستوى وما يغلب على الناس في عصر من العصور، أو مكان من الأمكنة، حتى قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ: "إِنَّكَ تَقْدِمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلَيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِنَّا عَرَفْنَا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ

خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرْدُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ" رواه البخاري ومسلم.

هنا تأصيل لفهم طبيعة المخاطبين، وظروفهم الدينية والثقافية والاقتصادية، كما في إشارة الزكاة، وكما في التدرج في الأوامر، حتى فيما يتعلق بأركان الإسلام.

ومع اتساع دائرة المنتدين للإسلام، وتعدد مشاربهم، وعدم القدرة على استيعابهم في مشاريع سلوكية وتربيوية مكثفة، فضلاً عن افتتاح التأثير من وسائل الإعلام والشبكات الاجتماعية والدراما والاحتكاك بين شعوب العالم، تبدو حاجة الدعاة إلى القرب من الناس، وتشجيع بادرات الخير في نفوسهم، مهما صغرت، وفتح أبواب الخير وطرقه، ومراعاة ضعف الهم، وتجدد المغريات.

لقد كان من فقه عمر بن عبد العزيز أنه قال: (يجد للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من الفجور). وتلقى الفقهاء والأصوليون كلمته بالقبول والإطلاق، وعدوها من بدائع الحكم، وهي كذلك. وجاء الإمام المجتهد أبو سعيد ابن لب الغناطي (ت782هـ) شيخ الشاطبي، فكان يرتب عليها كلمة أخرى، هي كالآخت لها: "يجد للناس من المحفزات، بقدر ما أحدهنـا من الفتور". ومن نافلة المعرفة، أن صاحب الهمة الضعيفة حين يرى أمامه جبلاً وعرأً، كثير المزالق، هو مزملة أقدام ومضلة أفهمـا، يحار فيه الخــريــت، ويضل فيه العــليــم، فهو خــلــيق بــالــاعــراضــ، وإعلــانــ الــهزــيمــةــ والــانــســحــابــ منــ المــضــمــارــ قــبــلــ خــوضــ الســبــاقــ

بيد أنه إن وفق لرشيد حكيم، عــزــزــ في نفسه الكفاءة، وأغرــاهــ بالخطوة الأولى، وأكــدــ لهــ أنــ الــبــاــقــيــ ســيــكــونــ أــســهــلــ مــنــهــ، وأنــ كــثــرــيــنــ لــمــ يــكــوــنــ يــظــنــوــنــ بــأــنــفــســهــمــ الــقــدــرــةــ، ثــمــ وــاــصــلــوــاــ وــعــبــرــوــاــ.. وــأــنــ فــضــلــ اللــهــ وــرــحــمــتــهــ هــيــ لــلــمــتــعــرــضــيــنــ لــهــ، فــلــاــ تــحــجــبــ نــفــســكــ دــوــنــهــ.. لــكــانــ الــظــنــ أــنــ يــشــمــرــ وــيــمــضــيــ.

وإذا مضــىــ كــانــتــ النــفــســ وــجــهــ أــمــاــمــ الــعــقــبــاتــ بــصــفــةــ تــدــرــيــجــيــةــ، فــالــعــقــبــاتــ لــاــ تــأــتــيــ دــفــعــةــ وــاحــدــةــ، وــمــعــ كــلــ تــشــدــيــدــ فــرــجــ، وــمــعــ كــلــ عــســرــ يــســرــ، وــفــيــ الــحــدــيــثــ بــســنــدــ حــســنــ: "تَنَزُّلُ الْمَعْوَنَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى قَدْرِ الْمَؤْنَةِ" رواه الحاكم في الكنى وابن عساكر والبيهقي والبزار وابن عدي من حديث أبي هريرة.

حتى يجد المرء نفسه وقد مضــىــ في الشــوطــ، وأــحــكــ الــتــجــرــبــةــ، وــتــعــرــضــ لــلــنــفــحــاتــ، وــبــنــىــ عــلــاقــاتــ وــصــدــاقــاتــ، وــاــســتــقــرــتــ فــيــ نــفــســهــ مــعــاــنــ مــعــاــنــ منــ الــخــيــرــ، تــرــدــعــهــ عــنــ الــانــحلــلــ الــتــامــ، وــتــنــادــيــ بــهــ إــلــىــ التــشــمــيرــ، وــلــعــلــ هــذــاــ مــاــ ســمــاــهــ النــبــيــ -ــصــلــىــ اللــهــ عــلــيــهــ وــســلــمــ-ــ: "وَاعْظُ اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ" من حديث التواب بن سمعان، عند أحمد، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

فــهــلــ يــلــقــطــ الدــاعــيــ هــذــاــ الــخــيــطــ، وــيــســهــلــ لــلــنــاســ ســلــوكــ الــطــرــيــقــ، وــيــحــفــزــ هــمــمــهــ لــلــانــخــرــاطــ، أــمــ يــظــلــ مــنــفــرــاــ لــهــمــ مــنــهــ بــالــمــبــالــغــةــ فــيــ ذــكــرــ أــشــوــاــكــهــ وــعــقــبــاتــهــ وــصــعــوــبــاتــهــ وــتــحــدــيــاتــهــ، وــالــإــيــغــالــ فــيــ ذــلــكــ، وــكــأــنــ لــســانــ حــالــهــ يــقــوــلــ: مــنــ لــمــ يــكــنــ مــوــفــورــ الــعــزــيــمــ تــامــ الــإــرــادــةــ قــوــيــ الــنــفــســ فــلــاــ يــضــعــ قــدــمــهــ فــيــ!

أــلــمــ يــقــلــ بــعــضــ الســلــفــ -ــوــيــنــســ أــيــضــاــ لــلــشــافــيــ -ــرــحــمــهــ اللــهــ -ــ: (ســيــرــوــاــ إــلــىــ اللــهــ عــرــجــاــ وــمــكــاــســيــرــ، فــإــنــ اــنــتــظــارــ الصــحــةــ بــطــالــةــ). أــلــيــســ فــيــ التــنــزــيلــ: (وَلَقَدْ يَسَرَّنَا الْقُرْآنُ لِذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكَّرٍ) (القرآن: 17). أــلــيــســ فــيــ وــصــيــةــ النــبــيــ -ــصــلــىــ اللــهــ عــلــيــهــ وــســلــمــ-ــ لــمــعــاذــ وــأــبــيــ مــوــســىــ الدــاعــيــتــيــنــ الــمــبــعــوــثــيــنــ إــلــىــ الــيــمــنــ: (بــيــســرــاــ وــلــاــ تــعــســرــاــ وــبــيــشــرــاــ وــلــاــ تــنــفــرــاــ وــلــاــ تــطــاــوــعــاــ وــلــاــ تــخــتــلــفــاــ) رواه البخاري ومسلم. أمر بالتيسيــرــ وــنــهــيــ عــنــ ضــدــهــ، وــأــمــرــ بــالتــبــشــرــ وــالتــشــجــعــ وــالتــرــغــيــبــ، وــنــهــيــ عــنــ ضــدــهــ مــاــ يــنــفــرــ وــيــبــاعــ!

علىــ أــنــ هــذــاــ مــاــ يــتــفــاــوــتــ بــحــســبــ نــوــعــ الــمــخــاطــبــ، فــثــمــ مــخــاطــبــوــنــ قــطــعــوــاــ مــشــوارــاــ طــوــيــلــاــ، وــاــســتــقــامــتــ نــفــوــســهــ، وــاــحــتــاجــوــاــ إــلــىــ أــفــقــ جــدــيدــ، يــمــضــوــنــ إــلــيــهــ بــرــغــبــةــ وــاــخــتــيــارــ.

ســعــيــاــ إــلــىــ اللــهــ بــغــيــرــ زــادــ، إــلــاــ التــقــىــ وــعــمــلــ الــمــعــادــ

والصبر في الله على الجهاد، وكل زاد عرضة النفاد،

غير التقى والبر والرشاد

لكن الخطاب العام لجماهير الأمة، وفي الوسائل المعلومة كالقنوات والشبكات، أصبح هو لب الخطاب وأساسه، فهو يحتاج إلى ضبط وإحكام وعناية بالقدر الواسع العام الذي ينتظم الناس جميعاً. ولن يعدم الداعية الحصيف لغة راقية مبتكرة، يخصّ بها أقواماً من المخاطبين دون أن ينجم عن ذلك ازدواجية في الخطاب، ولا اضطراب في المعايير.

جدير بالداعية أن يجعل الأبواب مشرعة للسالكين، وأن يحفز النفوس لفعل الخير وإن قل، وترك باب من الشر، ولو كان مصراً على باب آخر، وتعزيق ولاء الناس لدينهم وصلتهم بربهم ولو كان ثم نوع تقصير أو غفلة، ولكن عصر طريقته وأسلوبه المقتبس من شمولية الشريعة، والمتوافق مع متغيرات العصر ومستجداته. ومن هذا تغليب جانب الرحمة والحب والرفق والترغيب، وهو أصل في الشريعة باتفاقهم، فالحب قبل الخوف والرجاء، ويتأكد هذا في حالة غفلة الناس وصدورهم. الدعوة ليست ملكية خاصة لي، أريد أن أحيرها عن الآخرين، لئلا تكون كلاماً مباحاً! الدعوة هي كلام طيب من رزق الله الإيماني العلمي لمن يشاء من عباده، فلماذا حكم عليها الأسوار، وأدقق في هوية القادمين، وأتشدد في دخولهم.. أليست هي رحمة الله التي وسعت كل شيء؟ أمن العدل والإنصاف أن يدخل فئام من الشباب لأنفسهم لفظ الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، ليحكموا على من سواهم بالهلاك والخذلان؟

وكان الأجدر أن يحسنو الظن بغيرهم وينحووا على أنفسهم بالملامة، فاللهم اغفر لنا ولهم، واهدنا إلى سواء السبيل.

الإسلام اليوم

المصادر: